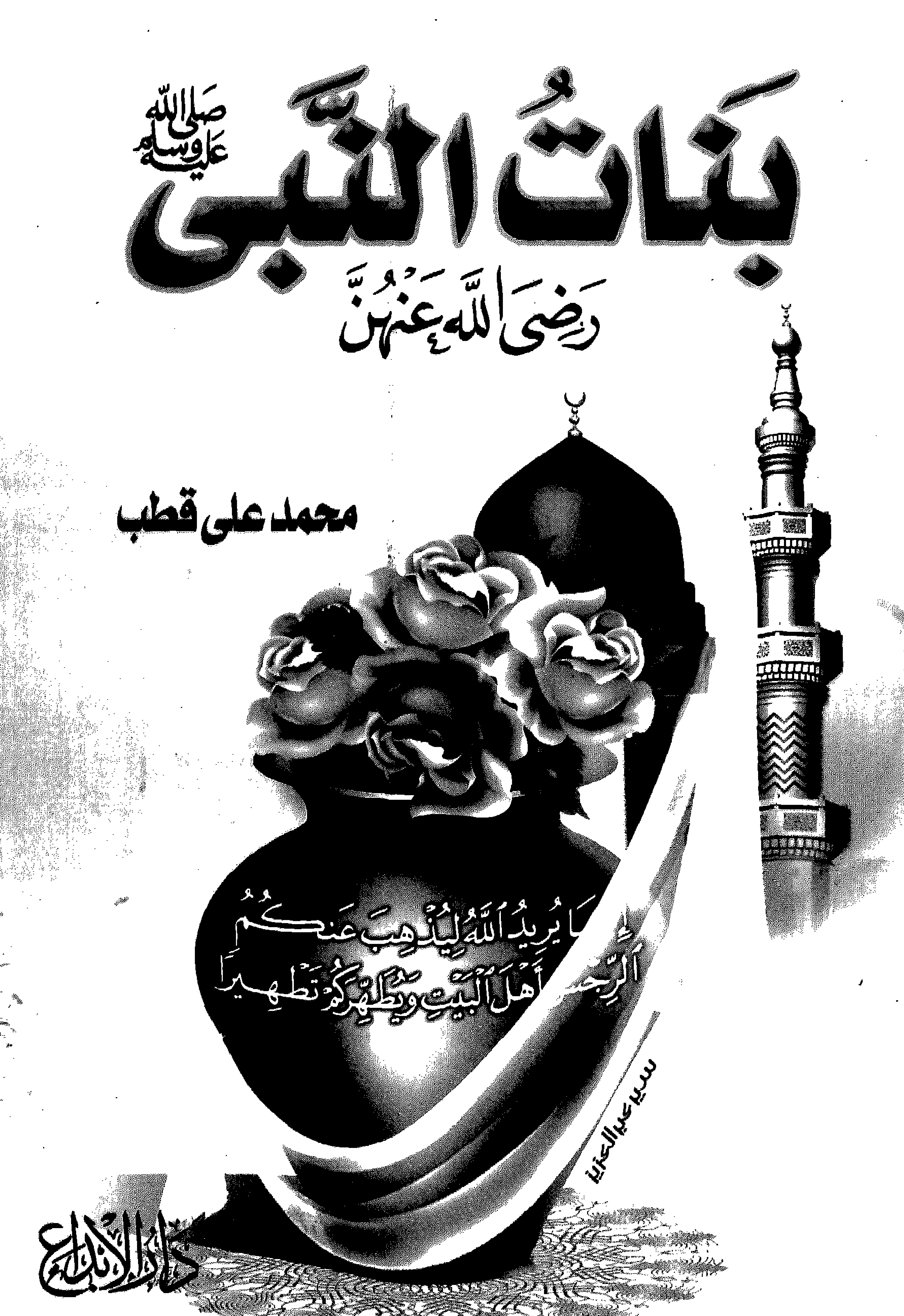


بنات النبي صلى الله عليه وسلم
رضي الله عنهن
محمد على قطب
ما يريد الله ليذهب عنكم
الرج أهل البيت ويطهركم تطهيرا
دار الإبداع

بنات النبي ﷺ

الطبعـــة الأولـــى

١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٧١/ ٢٠٠٤

I.S.B.N : 977 - 6157 - 02 - 5

دار الإبداع

٤ ش الإسقفية - المنشية - الإسكندرية

تليفاكس: ٠١٢/٣١٦٦١١٨

بنات النبى

صلى الله عليه وسلم

- « زينـــب »
- « رقـــيـة »
- « أم كلثــوم »
- « فـاطمـة »

رضي الله عنهن

إعْـداد

مُحَمَّدَ عَلِى قُطْب

دار الإبداع

الإسكنـدريـة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣).

★★

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمدُ لله، نحمدهُ تعالى ونشْكره، ونتـوب إليه ونستغفره، ونعوذُ به من شرور أنْفسنا وسيئاتِ أعمـالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يُضْلل فلن تجد له وليًا مرشـدا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، له المُلك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير؛ ونـشهد أن سيـدنا ونبينا محـمدًا عبـد الله ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقَ ليُـظْهره على الدين كُله، فبلغ الرسـالة وأدى الأمانة، ونَصَحَ الأمَّة، وجـاهد في الله حقَّ جهـادِه، وتركنا على المحجَّة البـيضـاء ليلها كنهـارها، لا يضل عنهـا إلا زائغ هالك، صلوات الله وسـلامه عليـه وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن اهتدى بهديه إلى يَوْم الدين.

وبعـد..

فـإن الحـديث عن «بنات النـبيِّ» ﷺ طيِّب شـيِّق، فـيـه عَـبَقُ النُّبـوة، وصفـحات السِّيـرة العطرةِ الطاهرة، ولكل واحدة منهـنَّ ﵅ بَصْمتُـها ودورها وإشراقها. وكُلهنَّ من نُطْفَةِ المصطفى ﷺ ورَحِم سَـيِّدة نساء العالمين «خديجة» ﵂، في الدُّنيا والآخرةُ.

دوحةٌ ظليلةُ، وثمـارٌ شهية، وأزاهـير لا تزال إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، يُعطِّرْن الوُجُود بِنَفحِ نَدِي، يُنْعِش القُلوبَ والأنْفُس.

مهما كُتبَ فيهنَّ، ومهمـا كتَبْنَا عَنْهُنَّ.. تُقَصِّر أقلامُنا وكلماتُنا عن إيفائهنَّ حقَّهُنَّ، وتَعْجَزُ ألْسَنتنا عن الثناءِ عَلَيْهِن.

يكفينا أن نمضي معهُنَّ في دُرُوب حياتهن، نستلهم منهُنَّ العِبْرة، ونستقي من فيض رفْعتِهِنَّ رواءً لظمئنا؛ ونستضيء بأنوارهِنَّ في ليالينا الدامسة الحالكة.!

وإني لأتوجه بما أكتُب عن «بنات النبيِّ» ﷺ إلى فتياتنا اللاَّئي أوْردتْهُنَّ سفاسفُ الحضارة المزيفة مواردَ الانحرافِ عن جادَّة الصَّواب، واللائي أخشى عليهنَّ الفتْنة من السقوط في أتون العذابِ يوم الحساب..! ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج:٦-٧)، أكتُب وفي قلبي حسْرة، وفي حلْقي غُصّة، وفي عيني دَمْعة..، إشفاقًا ورَهْبةً.

- وأكتُب آملاً بالتَّأسِّي والاقتداء..

لا أدعو إلى رهْبةٍ وحِرْمان، ولكن إلى فضلٍ وإحسان، وبهذا يعْتدل الميزان!!

- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٧).

- ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف:٣٢).

في حياة كُلٍ منهنَّ رضي الله عنهن أُنوثة بكُل متطلباتها ونَزَعاتها..! وفي حياةَ كُل منهنَّ حُبٌ وَوُدٌّ ووفاء..! وفي حياةِ كُلٍ منهنَّ شوق ولهفةٌ وحنين..!

وفي حياة كل منهنَّ أمُومَة، وبيْت زوجيةٍ تُرَفْرِفُ السعادةُ والرِّضى في أركانهِ. وفوق ذلك كُلّه إيمان...! وصِدْقُ يقين..! وتقوى، وخشْية من الله تعالى.

• إنهنَّ رضي الله عنهن نماذج راقية، وقدواتٍ سامية، لمن كان لها أوْلَهُ قَلْب، ثم ألقى السَّمْع وأَنْصت وأَصْغى.. وهو شهيد!

شهـيد ببصـره وبصيرتهِ، ثم اتَّبع وتَأسَّى، فكان مـن الفائزين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

والآن.. هيّا نسـتقرئُ معًـا سيرة وحـياة هذه الزهرات اليانعـات، نستنشق عِطرها، وننعم بشذاها، سائلين الله تعالى أن يهدينا جميعًا سواء السبيل.

★★

زَيْـنَبُ الكُبْـرى رضي الله عنها

كانت رضي الله عنها بعد أخـيها «القاسم» الذي مات في الشهـور الأولى من عمرِه، والذي كان رسول الله ﷺ يُكنَّى به، وأكثر المؤرخين وكُتاب السيرة يذكرون أنَّ ولادتها كانت قبْل البعثة بعشرِ سنين.

فكانت إطلالتُها على بيْتَ النبوة ريْحانةً تفيض عليه طيبًا عابقًا وبهجةً عامرة وسعـادَةً وعُهِد بهـا إلى المرْضعات على عـادَة أشراف العرب، وبعـد أن أخذت حظّهـا ونصيبـها من الرضـاعـة، تلقَّفـهـا البيت الـكريم من ثَم بعطف وحُبٍ شديدين، قَلْب أبيها الكبير وصَدْرُ أمّها الرؤوم.

ومنذ طفولتها الأُولى تدرَّبت «زينب» رضي الله عنها على أعمال البيت وخدمتِهِ بعيدةً، عن لهْوِ الطفولة وعبثها.

فلما نَضَجـت وشـبت، واكتـملت أنـوثَةً، تقدَّم لخطبتها ابـن خالَتِها «**هالة بنت خُويلد**» «**أبو العاص بن الربيع**»، الذي كان كثير التـعلُّق بخـالته «خديجـة» أم المـؤمنين رضي الله عنها لا يَفْـتـأ يزورهـا، ويتـردَّد عَلَيْـها. .، فكـان كلمـا جـاء زائرًا يرى «**زينـب**» فيـؤخذ بجلال مرآها، وعـزوبة حديثهـا، ورقَّة ملامحـها، ولُطف طباعها.

وكانت «**زينب**» من ناحـيتـها ترتاح إلى حـضـوره، ويطيبُ لها أن تَسْـمع أَخْبارَهُ، وما فيها من طرائف وأخبار، إذْ كان منذ حداثتِهِ فتى قرشيًا مشهورًا، له في ميدان التجارة باع طويل، ورائدًا من رواد الصحـراء الواسعة الشاسعة، حتى

إنه عُرِفَ بـ «جروّ الصحراء». كما كان قارئًا لبيبًا، مقدمًا في قومِهِ وعشيرتِهِ!
ولقد تفتح القلبان.. قلب «أبي العاص» وقلب «زينب»، وتقدم «أبو العاص» لخطبة «زينب» فأحسن رسول الله ﷺ لقاءه وأصغى إليه، ثم استأذنهُ في سؤال صاحبة الشأن.

ثم دخل رسول الله ﷺ على ابنته «زينب» وقال لها: «**بُنيتي.. إن ابن خالتك (أبا العاص بن الربيع) ذكر اسْمك**»، (كناية عن الرغبة في الزواج)، وهكذا كانت العادة وكان العُرْف.

فسكتت «**زينب**» حياءً، ولم تُحِرْ جوابًا، واحمرَّ وجهها، لكن خفقات القلب الطاهر وإغضاءِ النظر، كانا خير جوابٍ بالإيجاب.

فتبسم رسول الله ﷺ، ولم يكرر السؤال، ثم عاد إلى «أبي العاص» فصافحه مهنئًا مباركًا، داعيًا بالخير.

وفي بيت الزوجية أظلَّتْ «**زينب**» و«**أبا العاص**» سعادة فائقة وحب متبادل، فنهلا من رحيق الودِّ والسكينة أصفى شراب وأنقاه.

وكان «أبو العاص» بحكم عمله في التجارة، كثير السَّفر في رحلتي الشتاء إلى «اليمن»، والصيف إلى «الشَام» شأن «قريش» كلها.. فيغيب أيامًا وليالي، فتعاني «**زينب**» ﵂ من ألم البُعد والفراق، ويُعاني «**أبو العاص**» أكثر منها..، وقد هاجه الشَّوق مرَّة، فانطلق لسانه يُنشد:

ذكرتُ «زينَبُ» لما وركَت إرما ▪▪▪ فقلتُ سُقيا لشخصٍ يسكُنُ الحَرَما
بنت «الأمين» جزاها الله صالحةً ▪▪▪ وكلُّ بَعْلٍ سيُثْنى بالذي علما

هــذا مــا بلغــنا عن شــوقه وحــبه على لــسان الرواة، ولعله قــال في هذا الصَّدد أكثر من ذلك بكثير. . ، إنَّما هي نفثاتُ قلْبٍ عاشقٍ مُشتاق، وأنَّات صَدْرٍ آلمه البُعْد.

وحملت «زينب» من «أبي العـاص» ثُمَّ وضعت ذكـرًا سمَّـياهُ «عليًـا»، ثم حَمَلْت ثانيةً فوضَعَتْ بنتًـا سمَّياها «أُمامة»، اكتملت بهمــا فرْحةُ البيْت، وحفتْ بأركانِهِ السعادة والهناء؛ فكانا أوَّل حفيدين لرسول الله ﷺ.

وفي ذات يوم. . ، وبينمـا كان «أبو العـاص» غائبًـا عن «مكة» في إحْدى رحلاتِهِ التـجارية حَـدَثَ النَّبأ العظيم، إذ أُوحي إلى رسـول الله ﷺ بالنبُوَّة، وحمل أمانة الرسالة.

وتـابعت «زينـب» رضي الله عنها أباهـا، شـأن أخـواتهـا! «رُقَـيَّـة»، و«أم كلثـوم»، و«فاطمة» رضي الله عنهن.

ولما عادَ الزوج «أبو العاص»، من رحلته حدَّثَته «زينب» بما كان أثناءِ غيابه، كما سمعـه من الناس أيضًا! فقال لـ «زينب»: والله ما أبُوك عندي بمتَّهم، وليس أحبُ إليَّ من أن أسْلُك مـعك يا حبـيبة في شِـعْب واحد، لكنـي أكره لك أن يُقـال! إن زوْجك خذل قـومـه وكـفر بآلهـة آبائِهِ إرضــاءً لامـرأتِهِ فهل قـدَّرتِ وعذرْتِ!!؟؟

• وقام بينهما حاجز. . ! لكنهما لم يفترقا. . !

وحين اشْـتَـدَّ أذى الكفــار والمشـركين بـالمسلمين، وأذن رســول الله ﷺ لأصحابِهِ بالهجـرة إلى الحبشة حيْث فيهـا ملك لا يُظلم عنده أحد. . ، كان من

أصعب المواقف وأشدّها ألمًا على «**زينب**» وهي تودِّع أختها «**رُقَيَّة**» زوجة «**عثمان ابن عفان**» رضي الله عنه.

ولقد دخلت «زينب» رضي الله عنها في جوّ من الحزْن والكآبة، تتصل آيامهُ بلياليه، وها هي ترى أباها وأمَّها وأختيها «**وأم كلثوم**»، «**وفاطمة**»، وأقرباءها من «**بني هاشم**»، يدْخُلُون شِعب «أبي طالب»، عند سفح جبل «أبي قبيس»، قد قاطعتهم «قريش» وحاصرتهم، ومنعت عنهم التواصل الاجتماعي، والطعام والشراب.

كانت رضي الله عنها تألم وتحزن، وتبكي أحيانًا كثيرة. . ، فهي غير قادرة على فعل شيءٍ يختلف عنهم، وتصبر صَبْرًا لا يُطيقُه إلاَّ المؤمن، بانتظار فرجٍ من الله تعالى!

«ثلاث سنوات» بكاملها مَرَّت، وكأنها دهور وقرون. . ، حتى أذِنَ الله تعالى بالفَرج، ففرحت لذلك «**زينب**»، وذهبت إلى بيت أبيها وارتمتْ في أحضان والديْها اللذين طال اشتياقها لهما. . ! تبللهما بدموعها، وتغمرهما بذراعيها.

ولكنَّ الفرحة لم تكْتمل، إذ خرجتْ الأم العظيمة «**خديجة**» رضي الله عنها من حصار الشِعْب تعاني من الضعف والمرض، ثم لحقت بالرفيق الأعلى. . !

● واشتد الحزن بقلب «زينب» حتى كادت تقضي!

ودخلتْ رضي الله عنها في محنة جديدة شديدة، إذ مَرِضَ ولدها «علي»، ثم وافته المنيَّة، فكاد قلبُها يتقطَّع وتذهب نفسها حسراتٍ عليه، وكان قد بَلَغ الحلم.

ولما كان العام الثالث عشر من البعثةِ النبوية الشريفة، هاجَرَ رسول الله ﷺ والمسلمون إلى «المدينة»، وبقيت «زينب» في «مكة»، وفاءً لزوْجها «أبي

العاص»، مـحافظةً على وحْدة هـذا البيْت أن تنفَصِم عـراه، وقَدْ وافقـها الأبُ العظيم، والنبيُّ الكريم، على ما أرادت واختارتْ!.

وبقيت الغصَّة تتـفاعلُ في قَلْبها الكبير، إذ تكأكـأت الأحزان عليها من كل جانب، فصبرت محتسبةً ذلك عند الله تعالى!.

وخَرَج زوْجها «**أبو العاص**» مع من خرج من «**قريش**» إلى «**بَدْر**»!.

وانتهت المعركة يوم الفرقان «بهزيمة الكفر والطُغيان، وانتصار عباد الرحمن، قُـتل الكثيـرون، وأُسر الكثـيرون!. وكـان من بين الأسْرى «أبو العـاص» زوج «زينب»! وبَلغَ «زينب» النَّبأ! فآذاها ذلك!.

لكن أشد الإيذاء كان وفاةُ أختها «**رُقَيَّة**» زوجة «**عثمان بن عفان**» ﷺ، وهي بعيدة عنها!!

يالهـا من أحـداثٍ جِـسـام تتـوالـى على قلْب «**زينب**» وتتـابع واحـدة إثر الأخرى!!

وحين طولِبَ الأسـرى بالفـداء! اسـتخـرجت «زينب» من صندوق ثيـابهـا وحُلِيِّها قلادةً كانت لأمها «**خديجة**» ﷺ أهدتها إليها يوْم عُرْسـها، ثم حملتها لشقيق زوجها «عمرو بن الربيع» كي يقدِّمها فِدْية لزوجها.

لم يكد رسـول الله ﷺ، يرى تلك القـلادة حتى رقَّ لهـا رِقَّةً شـديدة، وخفق القلْب الكبير للذكرى العظيمة، وبدا عليه ذلك!

فَأَطْرق الحاضرون من الصحابة خاشعة أبصارُهم، وقد أُسروا بجلال الموْقف وروْعته؛ وبعـد صَمْتٍ طويل قال ﷺ: «**إن رأيتم أن تُطلِقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها مالها.. فافْعَلُوا**».

● فقالوا جميعًا: نعم يا رسول الله!

ثم إن رسول الله ﷺ استدعى إليه من بين الأسرى «أبا العاص»، وأوصاه أن يُرْسل «زينب» لأن الإسلام قد فَرَّق بينهما[1]. وأخذ عليه العهد في ذلك.

وعاد «أبو العاص» حـرًا طليقًا إلى «مكة»، فاستـقبلته «زينب» هاشةً باشةً، فرحةً مُرحِّبة، لكنه كان باديِ الحزْن والوجوم، فما أن استراح قليلاً حتى قال:

● جئتك يا «زينب» مُودعًا!

وأخبرها بما وَعَدَ أباها من ردها إليْه! وكانت اللحظة لحظة أسى، ولم تتخير «زينب» المؤمنة الصـادقة، ولم تـتردَّد، فـالحسْم في الـفراقِ من عند الله تعـالى، وليس من عند رسـول الله ﷺ، ولا بسبب مـن أسبـاب الدُّنيا، وعـلاقاتهـا الاجتماعية، فالأمر دينيًا وليس دنيويًا.

وعلى مـضضٍ خرجتْ «زينب» من «مكة»، وودَّعت زوجـها «أبا الـعاص» وداعًا مؤثرًا، إذ اغرورقت عيونهُمـا بالدُّموع! وقال لها «أبو العاص»، وهو يشرق بالدَّمْع: مهـما يحدثُ يا «زينب» فسـأبقى على حبِّك ما حيـيت وفيًا، وسيـبقى طيفُك أبدًا ملءَ هذه الدار التي شهِدَت أحلى وأطيب أيام حياتنا.

فمســحت «زينب» دموعها التي سالت علــى وجْنتيْها، وأمسكت بيـد ابنتِها «أُمامة»، وانْصَرفتْ!

لكن «قريشًا» تصدتْ لها ومنعتها.. وأجبرتها على العودة إلى «مكة»!.

ورُوِّعت ﵂ لما لاقت، وكانتِ حاملاً، فنزفت دمًا كثيرًا، وأجهضت!

(١) كانت آيات الأحكام والتشريع قد نزلت في «المدينة» ولم تكن قد نزلت من قبل في «مكة».

فاستقبلها «أبو العاص» عنده، في بيتها، وحماها، ومضت أيام حتى استعادَتْ عافيتها وقوَّتها! وانتظر بضعة أيام، غفلت فيها «قريش» عنها، فأخرَجَها بصُحْبَةِ أخيه «كنانة بن الربيع» حتى إذا كان في ضاحية من ضواحي «مكة» أدْركهما بعض رجال «قُريش» يريدون إعادتها إلى «مكة» كما فعلوا من قَبْل، وكان فيهم رجل اسمهُ «هبار بن الأسْود» لوّح بالسَّيْف في وجْهها، فوقعت من فوق ناقتها على صخرةٍ، وآلمها ذلك أشدَّ الألم.

وبرز لهؤلاء «كنانة بن الربيع» وتوعدهُم بالقتال، وأوتر قوْسَهُ بسهمٍ صَوَّبهُ نحوهم، وكانوا يعلمون ما عليه «كنانة» منْ سداد رَمْيٍ، وصلابة رأي، فتراجعُوا، فأعادها إلى ركوبها، ومضى بها إلى «المدينة» حتى أبْلغها مأمنها، ومعها طفلتُها «أُمامة».

وعاد «كنانة» إلى «مكَّة» وهو يُنشد:

عجِبْتُ لـ «هبارٍ وأوباشِ قوْمِه ▪▪▪ يُريدون إخفاري ببنْتِ «محمد»
ولستُ أبالي ما حييتُ عديدَهم ▪▪▪ وما استجْمعْت قبضًا يدي بمهندي

ثم إن «أبا العاص» خَرَجَ إلى الشام في عير لـ «قريش»، وبلغ رسول الله ﷺ «أن تلك العير قد أقبلت راجعة، فأرسل سرية قوامها مئة وسبعون من المسلمين، مهاجرين وأنصارًا، بقيادة «زيد بن حارثة» رضي الله عنه لاعتراضها؛ فالتقوها بناحية «العيص»، وكان ذلك في شهر جمادي الأولى سنة ستٍ من الهجرة، فاستولوا عليها، ثُم عادُوا إلى «المدينة» ومعهم الأسْرى الذين كانوا في حراسة القافلة!

● أما «أبو العاص» فقد فرَّ هاربًا، ولكن إلى أيْن؟

وأدركه اللَّيْل، فقصد إلى المدينة مُتسللاً، ولجأ إلى حيْثُ تُقيم «زينب»، وقَرَع بابها، فاستقبلته بلهفةٍ، وعَرَفَتْ منه أخباره، فأجارته! ولم يعلم بذلك أحد، حتى رسول الله ﷺ.

فلما كان الصُّبح وصلى رسول الله ﷺ بأصحابه، قامت «**زينب**» وهي في صفوف النساء، ونادت بأعلى صوتها قائلة: إني قد أجَرْتُ «**أبا العاص بن الربيع**»، وفوجئ رسول الله ﷺ بما سَمِعَ، فالتفت إلى أصحابِهِ وقال:

● «**أيها الناس هل سمعتم كما سمعتُ**»؟

قالوا: نعم!، فقال ﷺ:

● «**فوالذي نفسي بيده ما عَلِمْتُ بشيءٍ مما كان حتى سمعت الذي سَمِعتم**»، وأضاف: «**المؤمنون يد على من سواهم، يُجير عليهم أدناهم، وقد أجرنا من أجارت**».

وانصرف رسول الله ﷺ إلى داره، فأتته «زينب» ﵂ وسألَتْهُ أن يُردَّ على «أبي العاص» ما أُخِذَ منه!، فأقرَّ بذلك.

ثم أمرها ﷺ أن لا تدع «أبا العاص» يقربها، فإنك لا تحلِّين له مادام مشركًا، فأطاعت وفعلت، . . . ونعود إلى «أبي العاص».

لقد شعر بالأمان يغمره في «المدينة»، وأن رسول الله ﷺ قد آواهُ وأجاره، وردَّ عليه مالَهُ، ورأى ما في الإسلام على أرض الواقع من سماحة وصدق، فأدرك ما هو عليه من جاهلية عمياء، قد أضلتهُ عن الحقّ والصَّواب زمنًا طويلاً!.

وأدرك أن حُب «زينب» له وحبه لها، مازال أصيلاً متمكنًا في فؤاديهماً فمال قلبـه إلى الإسـلام، والدخول في حـوزة هذا الدين العـظيم!. و لكن! وتوقف «أبوالعاص» عند كلمة: ولكن..!

ثارت في وجدانه شهـامته العربيـة، وإباؤه القبلي، وأضمَرَ في نفـسِهِ أمرًا، وهو أن لا يكون إشهار إسلامه منعـوتًا بالضغط والتأثير، كي لا يُقال في «مكة» بأن «أبا العاص» قد أسلم رغبةً في الحياة، وحبًا لـ «زينب» أو رهبةً من الموت أو خوفًا من الأذى!. فصـمَّمَ على أن يكون ذلك الإشهارُ والإعلانِ في «مكة» وفي ناديها، وعلى رؤوس الأشهاد، وعلى الملأ من الناس!

وأيضًا فقد كان هناك أمرٌ آخر يتعلق بمروءته وأمانته، وذمَّته، وهو مالُ الناس الذين ائتمـونه على أموالهم في تجارته، فلو أنه بقي في «المدينة» وأعلـن إسلامه فسيقولون بأنه سلبهم مالهم وودائعهم!

عندئذ استأذَنَ رسول الله ﷺ في العودة إلى «مـكة» فأذن له، فلما بَلَغها، وقبل أن يُشهـر إسلامه، أدى إلى كل ذي حق حقـه، ثمَّ وقف على حلق القوم عند «الكعبة الشريفة» أعلنَ إسلامَهُ في عزَّة وأنفة، فبهِتُوا، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًـا. ثم كرَّ راجعًا إلى «المدينة» مرتاح النفس، مطمئن الضـمير، شامخ الرأس، وعُـدَّ من المهاجـرين؛ وردَّ عليه رسـول الله ﷺ «زينب»، فاجـتمع الشَّمل، واكتمل العقد، وخيم على الدار ما كان من قبْل.. حبوراً وسروراً.

ومضى على «الزوجين الحبيبين» عام واحد في «المدينة»، يَعُبان من السعادة والفرحة أصفى كؤوسهـا، ثم كان الفراق الأبدي الذي لا لقاء بعده إلا في الدار الآخرة!.

لقد تـفاعلتْ أحْداث الأيام فـي جسم «زينب» ﵄، وعاوَدَها النَّزْفُ الذي أصابها يَوْم رُوِّعت على يد «هبَار بن الأسـود» واشْتَدَّ عليها! ثم أسْلمت الروح، فبكاها «أبو العـاص» بكاءً حـاراً مُرّاً، «وتشـبث بهـا»، حتى أبكـى كل من كان حوْله، وحضَرَ وفاتها.

وبلغ رسول الله ﷺ، فأتاها دامع العين، محزون الفؤاد، وقد ذكَّره موتها لفراق أمِّها «خديجة» وأختها «رُقَيَّة» ﵄، فالأحداث تجرُّ الذكريات، وتستنهضُها من سُباتها.

ثم قال ﷺ للنُسْوة اللواتي اجتمعن حولها، باكيات ناحبات!:

- **«إغسِلْنها ثلاثاً واجعلن في الآخرة كافوراً»**.
- ثم صلى عَلَيْها، وشيَّعها إلى المقرِّ الأخير، إلى **«البقيع»**.

وعـاد **«أبـو العـاص»** إلى سكَنِه وضَمَّ **«أُمامة»** إلى صَدْره يقـبلها، ويُبلِّلها بدموعه، ويستذكر وجه **«زينب»** الذي غاب عنه.

رضي الله عن «زينب» بنت رسول الله ﷺ وجزاها بما صـبرت واحتملت، وكافحت وجاهدت، جنَّة وحريراً. آمين.

☐☐ ★★ ☐☐

رُقية رضي الله عنها ذات الهجرتين

كنتُ قد كـتبت في «نساء حـول الرسول ﷺ» مدخـلاً إلى حياة «رُقـية» رضي الله عنها أقول (لما أنزل الله تعـالى على نبيـه ﷺ قوله الكريم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، خرج رسول الله ﷺ حتى أتى «الصفـا»، فصعد عليه وهتف: «**واصباحاه**»!.

فلما اجتـمع إليه الناس من كُلِّ مكان قال لهم: «**أرأيتُم لو أخبرتُكم أن خيلاً تخرج عليكم من سفح الجبل.. أكُنْتُم مُصَدِّقي**»؟!

قالوا: بلسان واحد: ما جَرَّبْنا عليك كذبًا..

فقال ﷺ: «**فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد**».

فانـبري له من بين الناس جـميـعًا عـمه «**أبو لهب**»، «عبـد العُزى بن عـبد المطلب» فقال: تبًا لك.. ألهذا جمعتنا؟!!

●فأنـزل الله تعـالى قـوله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (المسد: ١-٥).

قال الشاعر «الأنصارى» ـ «الأحوص» في حبل امرأة «أبي لهب»:

ما ذلتُ حـبى يـراهُ النـاس كُلَهم ... وسطِ الجحيـم ولا يخـفى عـلى أحـد
كلٌّ الحبال حـبال النـاس مـن شـعر ... وحـبلـهـا وسط أهـل النـار مـن مَسَد

فلما سمعت «أم جميل» حمّالة الحطب قَبّحَها الله تعالى، ما أُنزل في شأنها وشأن زوْجها من قرآنٍ كريم، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند «الكعبة»، ومعه «أبو بكر الصديق» ﷺ وفي يدها فِهر من حجارة - وهي قطعةٌ تملأُ الكف -، فلما وقفتْ عليهما تريدُ إيذاء النبيّ ﷺ أخذ الله تعالى ببصرها عن رسُوله، فلم تر إلا «أبا بكر»، فقالت: يا «أبا بكر» أين صاحبُك، فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لَضَربت بهذا الفِهرْ فاهَهُ، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مُـذَمَّـمـا عـصـينا ... وأمْـرَهُ أبـيـنـا

وديـنـه قلـيْـنـا

ثم انصرفت، فقال «أبو بكر»: يا رسول الله أما تراها رأَتْك؟؟ فقال ﷺ: «ما رأتْني، لقد أخذ الله ببصرها عَني!».

وصَدَق الله تعالى حيث قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥).

و«رُقَيـة» ﷺ كانـتْ على وشْك أن تكون زوْجةً لأحـد ولدي «أبي لهبٍ»، وهنا التداخل بين المقدمة وقصة حياة «رُقَيَّة»!

ولدت ﷺ بعد أُختها «زينب» وقيل كان بينهما «عبد الله» الذي عُرِف بـ «الطاهر» و«الطيب»، والذي لم يتم شهوراً، ثم توفاه الله تعالى.

ولقد كان مولدها قُرَّة عين لوالدها سيدنا رسول الله ﷺ ولأمِّها «خديجة» ﷺ، ومع تمام عامهـا الأوَّل لحقت بها «أم كلثوم»، فنشأتا سويًا، متلاصقتين

متعـاطفتين، وكأنهما توأم، وقد اشـتد تقاربهما وانسـجامهما خصـوصًا بعد أن فارقتـهما «زينب» إلى بيت الزوجية، فكانتـا أشد وثوقًا وخلوصًا إلى بعضـهما، وفي كـتب السيـرة ما يشـهد على هذا التـلازم، إذ أجمـعت كل الروايات على وحدة المال التي كانت قائمة بين الأختين الكريمتين: «**رُقيَّة**» و«**أم كلثوم**».

بعد أن زُوجت «**زينب**» إلى «**أبي العاص بن الربيع**»، وقد قربت سن «**رقية**» و«**أم كلثوم**» من الزواج، جاء «**أبو طالب**» شيخ «**بني هاشم**» إلى ابن أخيه، سيدنا رسول الله ﷺ خاطبًا لهما إلى ابني أخيه «**عبد العزى**» أبي لهب.

قـال «أبـو طالب»: جـئناك نخطب ابنتـينا «رُقيـة» و«أم كلثوم»، ومـا أراك بهما على ابنيْ عمك: «**عُتبة**» و«**عتيبة**». . ابنيْ «عبد العـزى». فأجاب رسول الله ﷺ: «**هلا أمهلتني يا عم حتى أتحدَّث في هذا إلى ابنتيَّ**»؟

وعرض رسـول الله ﷺ «الأمر على أهل بيته» زوجـته «خديجة» وابنتـيه صاحبتي الشأن، فسكتت «خديجـة»، رضي الله عنها قليلاً، في فترةتأمُل ومُراجعة. وهي تعرف ـ حق المعـرفة ـ «أم جمـيل» زوجة «عبـد العزى»، تعـرف قسْوةُ قلبـها، وشراسة طبعها، وحدَّة لسانها، رصلفها الأحمق، وطيشها الأهوج. . !

فأشفقت على ابنتيها أن تسلمهـما إلى هذا الجو المشحون بالحقد والكراهية، والخُلُق السيء! ولـكنهارضـي الله عنـها خشيـت إن هي نطقـت بما يعتـمل في صدرها ويجيش بخاطرها، أن تُغضـب زوجهـا، فيظن أنها تريد أن تمزِّق أواصر القُربى بينه وبين أهله، لذا سكتت!.

كما سكتت الفتاتان الغضتان حياءً، وأغفتا عن الجواب رقةً وخجلاً، وكست الحُمرة وجنتيهما، فزادتهما بهاءً.

وتَمَّ الأمر..! وعقدت الخطبـة في جوٍّ مشوب بالقلق، وبارك الأب الحنون ابنتيْه، وفلذتي كبده، وترك أمر رعايتهما لله عزَّ وجلَّ.

ولاحَ في سماء «مكة» قبس من نورٍ أضاءها وبدَّد ظُلمتها، حين أظلتها بعثة رسول الله ﷺ هدايةً ونوراً.

وتردَّد في أسماع «خديجة» ما كان يقوله ابن عمَّها «ورقة بن نوفل»:

لجـجتُ وكُنْت في الذكـرى لجـوجًـا ...	لِهَمٍّ طالما بعث النشـيـجـا
ووصف من «خـديجـة» بعـد وصف ...	فـقـد طال انتظاري يا خـديجـا
ويظهـر في البـلاد ضـيـاء نورٍ ...	تقـيـم به البـرية أن تموجـا
فـيـاليـتـني إذا مـا كـان ذاكم ...	شـهـدتُ فكنت أولهم ولوجًـا

وتذكرت «خديجة» رضي الله عنها ابنتيها «رُقَيَّة» و«أم كلثوم»، وما سيؤول إليه أمرهما بين يدي «أم جميل» الظالمة، وزوْجها المِطواع.

اجتمعت «قريش»، ائتمرت برسول الله ﷺ ودعوتِهِ فقال قائلها: إنكم قد خلصتم «محمداً» من همه، فردّوا عليه بناته، فاشغلوه بهنّ! فردَّ «أبو لهب» زواج ابنيه من بنتي رسول الله ﷺ قائلاً لولديه: رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي «محمد»!

ولم يكن الدخول قد تمّ بعد، ومن ثَم عادت الفتاتان بِغُصةٍ وحسرةَ.

ولم يكتف «أبو لهب» وامرأته حمالة الحطب بما أقدما عليه من أذى وإيلام، بل بالغا في إيذاء النبي ﷺ. فكان «أبو لهب» يتعرض له في كل مجلسٍ وطريق مهاجمًا.. ومقارعًا، وسابًا وشاتمًا، من غير أدنى حِسٍ بقرابة «أو صلة

رحم»، إذ نزع الله تعـالى من قلبه كل معـاني الخيـر والفضل، وكـذلك امرأته حمـالة الحطب التي كانت تجـمع الأشواك المؤذية والأقذار ذات الروائـح الكريهة فترميها في طريقه أو على باب داره، إمعانًا في الضرر، واستغراقًا في الفحش.

ومع تتـابع الوحي، واشتـداد الأذى، قال رسـول الله ﷺ لـ «خديجـة» رضي الله عنها: **«لقد مضى عهد النوْم يا خديجة»**.

وأحست الفتاتان «رُقية» و«أم كلثوم» رضي الله عنهما بتبدلٍ أساسيٍ في جو البيت، فقد أصـبح بيتًـا يلفُـه الجدّ، وتأخـذه القـسوة في كل جـانب، فـهو هدفٌ رئيـسي للاضطهاد والعذاب، والهُـزء والسخرية، وانزاحت عن أفيائه بسمـة السعادة.. فتحملتا صابرتين مع الأبوين كل ذلك تقربًا إلى الله تعـالى، واستعذبتا في سبيله الألم، والشقـاء، والتضحـية، فصـقلتهمـا المحنة! حتى **«فاطمة الزهراء»** رضي الله عنها الطفلةُ الصغـيرة التي لم تتجاوز السـادسة من عُمـرها بكت يومًا وهي تزيل عن ثوب أبيها ما عليـه من غبار وقتار، فضمهَّا إلى صـدره الشريف، وقال لها: **«لا تحزني ولا تبكي يا ابنتي، فإن الله تعالى مانعُ أباك»**.

وخـاب فأل «قـريش» وظنها، فـلم يُعنت رسول الله ﷺ، من جـرَّاء ردّ ابنتيه إليه، إذ عوضـهُ الله تعالى خيرًا عن الزوجين الأولين: **«عُتبة»**، و**«عُتيبة»** ابني «أبي لهب» عوَّضهُ زوْجًا صالحًا، كريمًا عزيزًا، عريق النسب، واسع الثروة، لطيف الخُلق، دمثَ الطباع.. قد توَّجـه الحياء، ذلكم هو **«عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس»**! وكان رضي الله عنه من أعـزّ فتيان قـريش، حسبًـا وجاهًا وغنى، إذ كـانت الأمهـات من **«قـريش»** يُرقـصن أولادهنَّ على أنغام أُهْزوجـة اشتهرت وفاضت على الألسنة، فحواها «عثمان» رضي الله عنه.

أُحِــــبُّــك والـرحـــــمـن ▪▪▪ حُبَّ «قـريش» لـ «عـثـمـان»

وحين زوجه رسـول الله ﷺ من «رُقَيَّة» بعـد أن جاء خاطبًا لهـا، شدت الألسنة بأهزوجة جديدة تُكمِّل الأولى.

أحـسن شـخـصين رأى إنسـان ▪▪▪ «رُقَـيَّـة» وزوجـهـا «عُـثـمـان»

فأضحى هذين البيـتين أغْنيةً «شَعْبية» تتردد على كل شـفةٍ ولسان، لا تُبالي بالحقد ولا بالكراهية، بل تنطق بالحق!.

فلقد روى «السُهيلي» في الروْض الأُنف» عن «الزُبَيْر» في حديث أسنده إلى رسـول الله ﷺ قال: (إن رسـول الله ﷺ بعث رجلاً بـهديه إلى عـثمـان و«رقية» فاحتـبس الرسول فقال له ﷺ: **«إن شئت أخْبَرتُك ما حَبَسك»**؟! قال: نعم، قال: وقـفتَ تنظر إلى «عثـمان»، و«رُقيَّـة» تعجبُ من حسنهـما). حين تضاعف أذى «قريش» واشتد على المسلمين، ونالوا منهم نيلاً فاحشًا، أذِن رسول الله ﷺ لأصحـابِه بالهجرة إلى «الحبـشة»، فرارًا بدينهم كي لا يُفْـتنوا، وقال لهم: **«لو خرجْتُم إلى أرض «الحبشـة» فإن بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صِدقٍ، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنْتُم فيه»**.

وكان «**عثمان**» رضي الله عنه و«رُقيَّة» رضي الله عنها مِمَّنْ خرج مهاجرًا!

كـانت رضي الله عنها وهي تُفارق الأحـبة.. دامـعة العـيْن، والهـة القلْب، معـذَّبة النفس! ولقد عانقت أباها وأمها وأختيها «**أم كلثوم**» و«**فاطمة**»..، وكادت تشرق بالدْمع، وكان لسان حالها يردِّد:

الأهـــل والأوطـــان ▪▪▪ فـــراقـــهم صـــعبٌ
والـــروح والأبـــدان ▪▪▪ فلْيــقــبل الـــربُّ

لـكـنـه الإيمـان ▪▪▪ فِـداؤه الـقـلـب فلْيقْبـل الـربُّ

وكان «عثمان» رضي الله عنه في الطريق ساهمًا حزينًا، فَدَنَت إليه «رُقية»، المؤمنة الصابرة وقالت له «تخفِّف عنه»: ـ

● إن الله معنا، ومع الذين تركناهم برغمنا في جوار البيْت العتيق.

وبلغوا ديار الغربة.. بعد لأي ومشقة، وحاولت «قريش» أن تستردهم، فلم تفلح، فأقاموا في «الحَبَشَة» آمنين مطمئنين، لا يمسهم سوء، ولكنهم كانوا في شوق دائم إلى الأهل والوطن! إلى أن جاءتْهم الأنباء بإسلام «حَمَزَةَ بن عبد المطلب» و«عُمر بن الخطاب» رضي الله عنهما فاستطاروا فرحًا، وعجَّل بعضهم بالعودة، رغبة منهم بالمشاركة في صُنع المستقبل على أرض المعركة في «مكة»، بين الحق والباطل، ورؤية الأهل والأحباب الذين فارقوهم وطال أمد البُعْد عنهم، واشتدَّ الشَّوْق إليهم.

ورأى آخرون أن يستمروا في مقامهم، حتى يأذَنَ لهم رسول الله ﷺ، وكان «جعفر بن أبي طالب» رضي الله عنه على رأس هؤلاء.

وكان «عثمان» و«رقية» رضي الله عنهما من الذين عَزَموا على العوْدة. وما إن وطئت أقدامهما أرض الوطن، واكتحلت عيونهما برؤية مغاني الصبا ومراتع الشباب، حتى فاضت بالدمع. لكنهم فوجئوا بازدياد طغيان «قريش» وعنتها، فطووا قلوبهم وأفئدتهم على الحسْرةَ وخيبة الأمل.

وكانت «رُقية» رضي الله عنها أكثر العائدين حُزنًا وأسى! لأنَّها حين دخلت دار أبيها مَسَلِّمةً مشتاقة، وقبلتْ وعانقت أخواتها «أم كلثوم» و«فاطمة»، سألتْ بلهفة عن الأم الرؤوم «خديجة»، فسكتن ولم يجبن، وكانت دموعهُن أبلغُ جواب!

لقد لحقت «خديجة» رضي الله عنها بالرفيق الأعلى، بعد أن عانت كثيرًا من المرض الذي أصابها أيام الحصار في شعب «أبي طالب».

فبكت «رُقيَّة» بكاءً مرًّا، ونشجت، وقصدت قبر أمِّها تزوره، تتذكَّر الأيام الخوالي! ثم صبرتْ على قضاء الله وقدرِه، واحتسبت ذلك عند الله تعالى.

وقُدِّر لـ «عثمان» و«رُقية» أن تتواصل هجرتهما إلى الله تعالى!

إذ لم يطل مقامهما في «مكة» إذ بدأت هجرة المسلمين من «مكة» إلى «المدينة» بعد بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ بالتأييد والنصرة! فهاجر «عثمان» و«رُقيَّة» إلى «المدينة».

وهُناك وضعت طفلها «عبد الله» الذي ملأ على الزوجين الكريمين دنياهما بهجة وأُنسًا، وعوضهما ـ سبحانه وتعالى ـ عما لقياه من شقاء وعذاب وتعاسة!. لكن المؤمن مبتلى . . . وممتحن: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ١-٢).

كان «عبد الله بن عثمان» قد بلغ السنتين من عمره، قد درج ومشي، فبينما كان نائمًا في مهدِه نَقَرَهُ ديكٌ في إحدى عينيه، فتسمَّم، ولم ينفع في علاجه دواء، فمات ـ رحمه الله ـ!

فتفجَّر الحُزن في قلْب «رُقيَّة» رضي الله عنها، وعاودَتْها ذكريات الأيام الحزينة، وأقعدها المرض عن الحركة، ولزمت الفراش، وغاض ماءُ الحياة من وجهها! ولم يرقأ دمعها. ولزمها الزَّوج الحبيب الحنون، لا يُفارق فراشِها، يرعاها ويقوم على

خِدْمتها، كسير الفؤاد مَـجْروح القَلْب، دامع العينين! داعيًا وراجيًا من الله تعالى أن يخفف عنها ما بها من الآلام والأوجاع.

وتناهي إلى سَمْع «عثمان» رضي الله عنه صوت الدَّاعي إلى الجهاد، يستنفر الأنصار والمهاجرين بالخروج إلى «بدْر» لاعتراض عير «قريش» الآتية من الشام.

فقام «عثمان» المحزون إلى رسـول الله ﷺ «يَضَع نـفسه بين يديْه، لكن رسـول الله ﷺ أمـره بالبـقـاء إلى جـانـب «رُقية» يقـوم على تمريضهـا والاعتناء بها!

● ***وفاتها*** رضي الله عنها:

واشتد الصـراع بين الموت والحياة، وكلَّ الجسم عن تحمل الأعـباء والأحزان والمتاعب، ثم رفتْ روح «رقية» رضي الله عنها على شفـتيهـا وهي تحشـرج، ثم أطبقت جفونها، وغابت عن الوعي، وصعدت الروح إلى بارئها عزَّ وجلَّ.

وبينما كان «عثمان» رضي الله عنه المفجوع بأعز ما لديه، وأحب إنسان إلى قلبه يلثم جبينها، ويُـغطي وجهها، كان صَوْتُ البشـير القادم من «بَدْر»[1]. يعلن انتصار المسلمين، واندحار المشركين.

ودخل رسول الله ﷺ بيت «عـثمـان» وقد هزَّه نبـأُ وفاة: «رُقَيَّة» رضي الله عنها، وتقدم منهـا يودِّعها، وقـد ظهر الحزن والأسـى على وجهه الشـريف، والدموع تترقرق في عينـيه الكريمتين، وانحنى بلطف ورقّة على «فاطمة» التي أكبَّتُ على أختها الغالية «رُقية» تبكيها، فرفعها بتؤدة ولين، مَسَح دموعها بطرف ثوبه.

(١) كان «زيد بن حارثة» رضي الله عنه.

عندئذ علا نشيج النســوة الحاضرات، فأراد «عمـر» ﷺ أن يمنعهنَّ بسوْطه، فأمـسك به رسول الله ﷺ وقـال له: **«مـهـمـا يكن من العين والقلب فـمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان»**.

وصلى رسول الله ﷺ الأب المـفجوع على ابنتـه، وشيـعهـا حتى واراها الثرى الطيب في «**البقيع**» الطاهر، إلى جنب أختـها «**زينب**»، وعاد من ثمَّ إلى البيت والمسجد.

رضـي الله تعـالى عن بنت رسـول الله ﷺ «رُقـيَّـة» ذات الهـجـرتين، وزوجها «**ذي النورين**»، وجزاها عن إيمانهـا وجهادها وجَلَدُها وبلائها وصـبرها أحسن الجزاء وأوفاه.

★★

أمُ كلثومَ رضي الله عنها حبيسةُ الشعْب

● *القارئ العزيز:*

لئن لم تهـاجـر «أم كلثـوم» رضي الله عنها إلى الحبـشـة مع من هاجَـرَ من المسلمين والمسلمات، فتُعاني من ألم البعـد عن الوطن والأهل، إلا أنها عانت ما هو أشد من الهجرة والغُرْبة، إذْ حُبست مع المسلمين «وبني هاشم» في شعب «أبي طالب» يتضوَّرون جوعًا وسغبةً وعزلة طوال ثلاثـة أعوام، ذاقوا خلالها أقسى ما يتصوره إنسان من متاعب القطيعة، وجفاء المعاملة.

لقد تعاهد الظالمون الآثمون من «قريش» على ذلك، لا يبيعون ولا يبتاعون، ولا يزوجـون ولا يتزوَّجـون من «بني هاشم» ويمنعـون عنهم الطعام والشَّـراب، وكتـبوا ذلك في صحيـفة علقوها في جوْف «الـكعبة» تأكيـدًا على هذا العسْف والجوْرا إلى أن أذِن الله تعالى بالفَرَج.

ولقد صوَّر لنا «أبو طالب» ذلك في بضعة أبيات قـال فيها وقد تواطأ بضعة نفر من «قُريش» على نقض هذه الصحيفة وما جاء فيها قال:

جـزى الله رهطًا بـ «الحجون» تتـابعُوا ... على مـلأٍ يهـدي لحـزْمٍ ويرشـدُ
قـعودًا لدى خطم «الجـحـون» كـأنهم ... مـعـاملة، بل هم أعـزُّ وأمْـجـدُ
قضوا ما قضُوا في ليلهم ثم أصبحوا ... على مُـهلٍ إذ سـائر الناس رُقَّـدُ
فـيخـبـرونهم أن الصـحيـفـة مُزقت ... وأن كل مـا لم يـرضـه الله مـفـسـدُ
تـراوحـهـا إفكٌ وسـحـر مُـجـمَّـعُ ... ولم يُلفَ سـحـر آخـر الدهـر يصـمـدُ

وكان مما قالهُ المستهزؤن عند ولادة «أم كلثوم» رضي الله عنها: إن «محمدًا» لا يلدُ إلا البنات!، حتى قيل عنه ﷺ أبو البنات.

قالوا ذلك غفلةً منهم عن الحكمة الإلهية العظيمة، المتعدِّدة الجوانب، الكثيرة الأهداف، ذات المعاني والأغـراض الجمّة، إذ نسُوا أنـهم أهل جاهلية جمـقاء، وأنهم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ (النحل:٥٨).

ونسوا أنهم أهل ظلم ووحشية.. يئدن[1] بناتهم خشية الفقر تارة، أو العار تارةً أخرى، وهْمًا وغباءً: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩).

ونسـوا أيضًا أنهم أهل وثنيـة.. يعـبدون الحـجر والمدر، وأن لهـذا الكوْن العظيم إلهًا، يُقدِّر ويخلق ما يشاء: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ (الشورى:٤٩-٥٠).

ثم أخيرًا ـ وليس آخرًا ـ غفلوا عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الأحزاب:٤٠).

وبرزت إلى الوجود طفلة جـديدة لسيدنا رسـول الله ﷺ ممتلئةً، مكتنزة، جميلة المحيا، أسيلة الخدين، فسماها أبواها: «أم كلثوم».

ثم نَمَتْ وترعْرَعت ودرجتْ، فكانت نِعْم القرين لأُخْتـها «رُقَيَّة»، لا يفصل بينهما إلا مدة الحمل، فكأنهما ـ كما قدَّمنا وأسلفنا ـ توأم.

(١) يئدن بناتهم: يدفنونهم أحياء.

وقد خُطبتا معًا، حين بلغتا مرحلة الصبّا إلى ولَدَي «أبي لهبٍ» ثم رُدّتا بعد النُبُوّة معًا، ولقد كان ذلك خيرًا لهما، إذ نجت كلتاهما من نكد العيش مع حمالة الحطب. أما «رُقَيَّة» فما لبثتْ أن تَزَوّجها العفيف الشريف «**عثمان بن عفان**» رضي الله عنه وهاجرت معه إلى «**الحبشة**».

وبقيت «**أم كلثوم**» رضي الله عنها مع أختيها «**فاطمة**» في بيت أبيهما رسول الله ﷺ في «**مكة**» تشارك والدتها «**خديجة**» ـ أم المؤمنين ـ في تحمُّل عبء الحياة وقسوة المشركين، وتخفف عن الوالد العظيم، بحنانها وعطفها، ما يلقاهُ من أذى قريش وسفهِها.

وعلى هذا. . ، فقد عاشت وعاصرت «أم كلثوم» رضي الله عنها أشدَّ فترات الاضطهاد، وأصعب ظروف الدعوة، وأقسى أيام الجهاد.

وبلغ الجهل بـ «قريش» ذروته، فتنادى الأرهاط فيها واجتمعوا، ثم قرروا مقاطعة المسلمين و«بني هاشم» مقاطعة تُعَد ـ في ذلك الحين ـ أقسى ألوان الحرمان، والحرْب الاقتصادية والاجتماعية، وأكَّدوا ذلك ـ كما قدَّمنا بكتابة وثيقةٍ «**صحيفةٍ**» علَّقوها في جوف «**الكعبة**».

فخرج رسول الله ﷺ «بأسرته» والمسلمين، ومن تبعه في «بني هاشم» إلى شعب «أبي طالب»، وهو ضاحية من ضواحي «مكة» عند سَفح جبل «أبي قُبيس». وهناك عاشوا في ضيق الحصار والمقاطعة، حتى إنهم كانوا يأكلون أوراق الشجر من شدَّة الجوع، وأقاموا على ذلك نحو ثلاثة أعوام، تصل إليهم ـ في بعض الأحيان ـ الأقوات والأطعمة سرًا، مُهرَّبة، وخاصة من بعض ذوي قرابتهم، ممَّن لبثوا بـ «مكة».

ولقد لمح «أبو جهل» ذات يوم «حكيم بن حزام بن خويلد» يسير متخفيًا ومعه غلام يحـمل قمحًـا، يريد به عمـته «خديجة» رضي الله عنها، فأمسك به «أبو جـهل» يصيح: أتذهب بالطعام إلى «بني هاشم»! والله لا تبرح مكانك، أنت وطعامك، حتى أفضحك بـ «مكة».

وروى «سعد بن أبي وَقّاصٍ» رضي الله عنه قـال: «لقد جعْتُ حتى إني وطئت ذات ليلةٍ على شيءٍ رطب، فوضـعته في فـمي وبلعْته، ومـا أدري ما هو إلى الآن. «وكان ذلك الشيء الرطب ـ حسب ما جاء في بعض الروايات ـ روْث بعير!!».

وكان «هشـام بن عمرو بن ربـيعة العـامري» من أهل «مكة» الذين آلمهم ما يلقى المسلمون و«بنو هاشم» من ظلم وعذاب وحـرْمان. فكان يأتي ليلاً بالبعـير وقد حمل طعـامًا، حتى يصل به إلى فم الشـعب، وهنا يخلع عنه خطامه، ثم يضربه على جنبه فينطلق، ويدخل إلى «بني هاشم» والمسلمين، فـيتلَّقفونه وكأنَّه نعمة هابطة من السماء، قد ساقها الله تعالى إليهم.

● عزيزي القارئ:

إن المقـاطعة تكون بين طرفين ينابز أحـدهما الآخـر، لأنها من «المفـاعلة»، وهذه لم تحدث بين المسلمين و«بني هاشم» من جهـة، وبين مشركي «قريش» من جهة أخـرى، ذلك أن المسلمين و«بني هاشم» لم يقاطعوا قريـشًا أبدًا، بل كانوا يعيشـون صميم حيـاتها، وكل علاقاتهـا، فقط كانوا يتمـيزون عنها بعقـيدتهم وسلُوكهم من غير تباعد سلبي جامد، وغير مؤثر!

ولقد أدَّى هـذا إلى موقفٍ «قبلـي» متعنت ظـالم، وجاهليٍ ضال مـن قبل «قريش»، التي نفرت نفوراً شديدًا عن الإسلام، ثم حاولت بكل وسيلة أن تفند

هذا التيار، تـارة بالتهديد، وأُخرى بالوعيـد، وثالثة بالتعذيب، ورابعـة بالقتل، وخامسة بالحبس، وسادسة بالإفتراء، وسابعة وثامنة.... إلخ.

ولقـد وجـدت «قريش» نفـسها ذات يـوم مـحاصرةً حصـارًا شـديدًا، قد أخذ عليـها كلَّ السُّـبل، حيث لم تُفْلح وسـائلها في رفع خطر الإسـلام عنها، وصـدّ تياره! ولكـن أيّ خطر موهوم؟! إنه خـطر على الانحـراف العقـائدي، والضلال الاجتماعي، والانهيار الخُلقِي! إنه خطر على ردة الإنسان وانتكاسته في حمأة الشهوات!

لذا أرادت أن تحوّل هذا الحـصار عنها إلى حصـار على الإسلام والمسلمين، فكانت القطيعة! وهذا هو التصور الأحمق، الذي لا يدرك الأبعاد، ولا يفهم أو يعقل أن الله تعالى غالب على أمرِهِ.

وطالت فترة الحـصار ثلاثة أعوام، ولقد اتخـذ رسول الله ﷺ والمسلمون و«بنو هاشم» في الشّـعب ما يشبـه القرابة سلفًا.. لا تتـوفر فيـه أسباب الحـياة والمعاش، إلا بالنذر اليسير، واليسير جدًا.

ولقد كـان لهذا الجو الخانـق أثره السيء على كثيـر من المحاصرين، صحـيًا ونفسيًا واجتماعيًا! وكان من أبرز مظاهره وقوع «خديجة» ﵂ فريسة للمرض.

وهنا يبرز دور «أم كلثوم» ﵂ إذ قامت على رعـاية أمها بكل ما أوتيت من خبرة.. وحنان.. وشفقة.. وحب!

أضف إلى هذه المهمة الشاقة التي تستنزف شبابها وحيويتها، رعايتها للأخت الصُغرى «فاطمة الزهراء» ﵂، ومواساتها لأبيها رسول الله ﷺ!

وليس أصدق من تسميتها بـ «حبيسة الشِّعب». ثلاثة أعـوام من عمرها، وهي في زهرة شبابها، تصرفها جهاداً وصبراً واحتمالاً!

ولو أن «خديجـة» رضي الله عنها شُفِيت وبرئت لهانَ الخطب، وعـوَّضت «أم كلثومٍ» صبـرها خيراً، لكن الأم الرؤوم لم تسـتطع مقاومة المرض بعـد انتهاء القطيـعة، فانتقلت إلى جوار الله تعالى، فازداد همُّ قلب «أم كلثوم»، واعْتصرها الحزْن.

ومن ثم اضطلعت بأعباء البـيت الكبير، البيت النبوي الكريم، ومـسؤولياته الجسام! لقد دخلت رضي الله عنها أقسى تجربـة وأعظم امتحان! فوالدها رسول الله ﷺ في هموم الدعـوة، وحزنِهِ على «**خـديجـة**»، وأختـها «**زينب**» مع زوْجـها «**أبي العـاص ابن الربيع**» في «**مكة**»، لا تملك حوْلاً ولا طولاً، ورفـيقة العمـر والصبا «**رقيـة**» مع زوجها «**عثمـان بن عفـان**» في بلاد نائيةٍ بعيـدة وأمَّها «**خـديجـة**» في صراعٍ مع الموْت، والصُّغرى «**فاطمة الزهراء**» بحاجةٍ إلى من يرعاها!.

لقد حـملت «**أم كلثـوم**» رضي الله عنها في تلك الآونة أكـبر المسـؤوليات وأعظمـها، وأشدها، فكانت صابرةً محتبسه!.

• توفيت «**خـديجـة**» رضي الله عنها في اليوم العاشر من شهـر «رمضان» عام عشرٍ من البعثة النبوية، ودفنها رسول الله ﷺ بيديه الشريفتين في «الحجون» مقبرة أهل «**مكة**»، وعاد إلى البيت محـزونًا، فضم إليه «**أم كلثوم**» و«**فاطـمة**»، وواساهما، وخفَّف عنهما ما بهما من ألَم الفراق، ولوْعة المُصاب.

وكبـرت مسـؤولية «**أم كلثـوم**» فأضـحت المسؤولة الأولى عن البـيت النبوي الكريم، فكانت نعم ربَّة الدار المثاليـة، كيف لا؟! وهي ابنة سيدة نسـاء العالمين «**خديجة بنت خويلد**» رضي الله عنها.

وهاجر المسلمون إلى «المدينة» وهاجر من بعدهم رسول الله ﷺ ، وكانت رحلته أعظم مغامـرة عرفها تاريخ الإنسانية في سـبيل الله ونصرة الحق. وبقيت «أم كلثوم» و«فاطمة» في «مكة» حرصًا على سلامتهما، وبعد وصوله ﷺ إلى «المدينة» أرسل مـولاه «زيد بن حارثة» إلى «مكة» يسـتحـضرهنَّ، فخـرجن إلى «الحجون» وودَّعْنَ قَبْر الأمِّ الحنون، ثم مضين إلى «المدينة».

مضى على الهـجرة عامان حـافلان بالأحداث وعظائم الأمور، شـهِدَت «أم كلثوم» خلالهما عودة أبيـها منتصراً في «بدر»، كما شهِدَت وفاة شـقيقتها وتوأم روحها «رُقيَّة» مـتأثرة بمرضها، كما شَهِدت دخـول «عائشة» ﵂ زوجةً لرسول الله ﷺ .

وحين أهلَّ العام الثالث للهجرة كان الحزْن لا يزال مخيمًا على قلبها، لكنها كـانت تلمحُ «عثـمـان» ﵁ يأتي أباهـا دائمًا يلتـمس عنده العـزاء، والنصح والعون عن فقيدته الغالية «رُقية»، كـما كانت ترى دموعه في عـينيه تحدِّث عن لوعتِهِ وحُزنِهِ.

وفي ذات يوم جاء «عـمر بن الخطاب» ﵁ إلى رسول الله ﷺ مغـضبًا شاكيًا، فسأله النبي ﷺ عن سبب ذلك، فأخبره «عمر» بأنه عَرَض على «أبي بكر» وعلى «عثمان» الزواج من ابنته «حفصة» التي تأيمت، فلم يوافقا!.

فطيّب رسول الله ﷺ خاطِرَه، وخَفَّف من ثورة غضبه.

وقال له: **«يتـزوج حفصة من هو خير من عثمـان، ويتزوج عثمـان من هي خير من حفصة إن شاء الله تعالى»**.

وتزوج رسول الله ﷺ «حـفصة» فـهو خيـر من «عثـمان»، ثُمَّ بعث إلى «عـثمـان» فـجـاءه، فقـال له: **«أزوِّجُك «أم كلثـوم» أخت «رُقَـيَّـة» ولوْ كن عـشـراً**

لزوجـتكهن». إن الذي دعـا إلى هذا الموقف النبـوي الكريم، قول «عـثمـان»؛ لرسول الله ﷺ بعـد وفاة «رقيـة» لقد انقطع صهـري منك يا رسول الله..! وتم الزواج وعاشت أم كـلثوم في كنف «عثـمان» وعـوضها الله تعـالى سنوات القهر والعذاب والحِرْمان، هناءَةً ورِضىً.

ولكن! ها هي من جديد في جو مِحنةَ وأية محنة؟! ففي شهر «ذي القعدة» سنة ست من الهجرة خرج رسـول الله ﷺ «في ألف وأربعمائة» من المسلمين مُحْرِمين يريدون العُمْرة!.

فلما كانوا قريبًا من «مكة» تصـدَّت لهم «قريش» ومنعتهم أن يدخلوا «مكة» عنوةً، حتى ولو جاؤوا معظمين لبيت الله الحرام وغير محاربين. ونزل رسول الله ﷺ بأصحابه عند «الحديبية».

وبدأ التفـاوض بين الطرفين، وأراد ﷺ أن يَبْعثْ إلى «قـريش» سفـيراً، فطلب من «عمر» ذلك، فـاعتذر لما بينه وبين «قريش» من خصـومة وعداوة، ثم دلَّه على «عثمان»، فأرسله رسـول الله ﷺ! وكان بـ «عثمان» مكانة ومنزلة، وأهل وأقارب، فـأتاهم، فاستـقبلوه وأكـرموه، وحاولوا إغـراءَهُ بالطواف حول «الكعبة» فأبى وقال: ما كنت لأعتمر ورسول الله ﷺ ممنوع!.

طالت فترة غيـابه أيامًا، وأشيع بأن قريشًا قتلت «عثمـان»، فبايع رسول الله ﷺ أصحـابُه تحت الشجرة بيعـة الرضوان، والثأر لـ «عـثمان». وكان لغـيابه رضي الله عنه وحشةً في قلب «أم كلثوم». أما نبأ الإشاعة بقتلِهِ فقد كان أشد وطأً عليها!

وما اطمأنت وهدأ وجيب قلبها وجفّ دمـعها إلا بعد أن رأتْه قد عاد سالمًا، لم يمسسه سوء.

وبعد أن تم لرسول الله ﷺ فـتح «مكة» سنة ثمانٍ من الهجـرة، وتطهير «الكعبة الشريفة» من معالم الشرك والوثنية، والانتصار على «هوازن» في حنين، وبدأت وفود العرب تأتي «المـدينة» من كل مكان تعلن خضوعهـا، ودخولها في دين الله أفواجًا . . ! .

طَلَبَتْ «أُمُّ كلثوم» من أبيها وَزَوْجها «عثمان» أن تأتي «مكة» وزيارة قبر أمِّها «**خديجة**»، فوافقاها، وبدأت بالاستعداد.

لكنَّ عـوامل الزَّمَن وأحـداثه التي هدَّتَ بدن «أُمِّ كلثـوم» وأرهقَـتْه إرهاقًـا شديدًا، جعلها تمْرض . . وتلزم الفراش، ولا تقوى على الحركة.

ولم تطل بهـا الأيام إذ وافتهـا المنية في شـهر «شـعبان» سنة تسْعٍ! فـبكاها زَوْجها «عثـمان» أشد البُكاء، وحزن لفقدها أعظم الحـزن، ودُفنت في نفس قَبْر أُختِها «رُقَيَّة».

لقـد جمعهما في الحياة بيت واحد، هو بيت «عـثمان». وضمهما قَبْر واحد في الممات.

ووقـف النبـي ﷺ عـلى قـبر ابْنَتَـيْـهِ دامع العيْن، فَـثَـقُل القلب بِهمِّ الثكل المتتابع! .

رضي الله عن «**أُمِّ كلثوم**» بنت رسول الله ﷺ ، حـبيسة الشِـعْب، وأنزلها منازل الأبرار الأطهـار والصـالحين من عـبـاده المكرمين، وجـزاها بما صـبـرتْ واحتملت جَنَّةً وحريراً، وألحقنا بها في جنات النعيم.

□□ ★★ □□

فاطمة الزهراء البتول رضي الله عنها وأرضاها

وُلدت رضي الله عنها قَبْل البـعثة بخمـسة أعوام، وصاحب يوم مـولدها حدث جلل عظيم، تحدثت عنه الأجيال سابقًا ولاحقًـا، وتجلَّت فيه حكمة سيِّدنا رسول الله ﷺ . فقد كانت «الكعبـة» الشريفة أصيبت بانهيارات لجدرانهـا بسبب السُّيول التي تدفقت من الشعاب والوديان بعد أمطار غزيرة!.

ثم إن «قريشًا» أرادت إعادة البناء، وشَمَّرت عن سواعدها، واهتمت لذلك، فلما بلغوا موضع «الحجر الأسود» اختلفت البطون.. أيها يكون له شرف إعادته إلى مكانِه، وبَلَغَ الخلاف بينهم إلى حدِّ السِّيوف والتقاتل، وظلوا على هذا التوتُّر والاسْتعداد للقتال أربعة أيام بلياليها!.

ثم اقترح عليهم أحد رؤسائهم «أُمَيَّة بن المغيرة» المخزومي اقتراحًا ورأيًا قبلوا به جميعهم، إذ قال لهم: يا معشر «قريش» اجعلوا بينكم حكمًا يقضي فيما أنتم مختلفون فيه يكون أول داخلٍ عليكم باب المسجد الحرام!

فقالوا: رضينا؛ وسلَّمْنا.

● ثم تطلعوا نحو الباب ينتظرون وينظرون!

وبينما هم في تلهفهم وتشوفهم أطل عليـهم بِطَلْعَتِهِ الوضَّاءة سيدنا «محمد» ﷺ ، فقالوا جميعًا: هذا الأمين «محمد بن عبد الله» رضينا بِهِ حكمًا.

اسـتمـع «الأمين» لهُم، وعـرضوا عليـه ليـحكم بينهم، فلـبث برهةً يفكر ويقَدِّر، ثم أُلْهِمَ، فخلع عنه رداءَه، وبسطه ووضع «الحـجر الأسود» في وسطه،

وطلب إلى رأس كلِّ بطن من بطونهم أن تُمْسِك بطرفٍ مِــن الرّداء، ففعلُوا، ثمَّ تناول ﷺ بيده الشريفة الحجر ووضعـه في مكانِه، وسُرَّ الجميع بأنهم شاركوا في هذا الشرف العظيم.

● وحُقِنـت الدِّماء، وسلمت الأنفس والأرواح، وأكـبر الناس جـميـعًا هذا الفـضل، وانطلقت الألسنة تحـمد لـ «الأمين» ﷺ حكمـته ورجـاحة عـقله. وأنشد الشاعر «أبو وهب المخزومي» يقول:

تشـاجـرت الأحـيـاء في فـصْل خـطة ...	جـرت بينهم بالنَحْس من بعد أسْعد
تلاقـوا بهــا بالبُـغض بعـد مـودة ...	وأوقــد نـارًا بينهم شــر مـــوْقـــد
فلمـــا رأينا الأمــر قــد جَــدَّ جـدُّه ...	ولم يبق شيء غـــيــــر سل المهنَّدِ
رضــــينا وقلنا: العـــدْل أوَّل طالـع ...	يجيء من البطحاء من غير موْعدِ
فـفـاجـأنا هذا الأمين «مـحـمـد» ...	فـقُلنا: رضـينا بالأمين «مـحـمـد»

ثم غادرهم «الأمين» ﷺ إلى بيـته سعيدًا بما قـام بِهِ ووُفِّق إليه! في تلك الساعـة، ولدى دخوله ﷺ الدَّار تلقى نبأ مـوْلد «فاطمة» ﵂، فـأسْرع إلى «خديجة» يهنئها بالسَّلامة، وقد ازداد وجهه إشراقًا وضياءً، ثم أقبل على الطفلة المولودة باسم الثَّغـر.. وسماها «فاطمة» تيمنًا باسم جـدَّاتِه «الفواطم»، وكان وجهها ﵂ يتألق نُورًا وبهاءً فلقَّبها ﷺ بـ «**الزَهْراء**».

ونشأت ﵂ محـاطة بحب عظيم من أبويها وأخواتها، وخاصَّة مـن أختها الكبرى «زينب» ﵂، إذ كـانت تحنو عليها وتدلّلها وتُلاعِـبها، تلبي رغـباتها، وتوجِّهها إلى كلِّ خَيْر وخلق كريم.

وبعد زواج «زينب» و«رُقية»، وقد فـارقتا البيـت النبوي الكريم، الأولى إلى زوْجها «أبي العاص بن الربيع» والثـانية إلى «عثمان بن عفان» شـعرت «فاطمة» بوحدةٍ ووحشةٍ، ورأتها أمها «خديجة» رضي الله عنها تبكي ذات يَوْم، فسألتها: ما يُبكيكِ يا «فـاطمـة»؟ فأجـابت: لا تدعي أحـدًا ينتـزعُني منك ومـن أبي فلستُ أطيق فراقكما! فـتبسَّمت لها «خـديجة»، وضمَّتها إلـى صدرها بحنانٍ ورِفق، وقالت لها: لن تتركينا إلا إذا أردْتِ!!

لقد كـان تعلقها بأبيهـا ﷺ وبأمها «خـديجة» رضي الله عنها شديدًا، قَويًا مـتينًا، تحتذي بهما في أخلاقياتها وسـلوكها، فشبت على العِفة الكاملة، وعزة النفس، وحب الخير، وصفاءِ الطَّبع، ونقاء الضمير، وصِدْق الكلمة!.

تفتحت عـيناها وبصيرتها على الوحي الكريم يقطر سَلْسـلاً على قَلْب أبيها النبي العظيم، والرسـول الكريم، فتـأدبت بأدب القرآن، وحـفظت آياته وتأثرت بتوجيهاتِهِ، وسلكت سبيله.

وعانـت رضي الله عنها من جفوة «قـريش» واضطهـادها لكلٍّ من آمن وأسْلم واتبع، وكان أكثـر ما يؤلم قلبها وفؤادها ويُعكِّر عليـها صَفْوة رُوحها الطاهرة مـا يلاقيه والدها النبي الخاتم ﷺ مِنْ أذى وتكذيب.

إنها المسؤولية المبكرة التي يلقيها القدرُ على عاتق «الزهراء» بنت بيت النُّبوَّة، أن تَنْطق بكلمةالتوحيد وهي في سنواتها الأولى.. طفلةً.

وكان ذروة ما لاقـته من آلامٍ ذلك الحصار الظـالم للمسلمين «وبني هاشم» فـي شعب «أبـي طـالـب»؛ فقد أثر هـذا الحـرمـانُ على صِحتها فكانت من بَعْدُ ـ طوال حياتها ـ تشكو ضعف البنية وجهد البلاء.

وما كـادت رضي الله عنها تخرج من محنة هذا الحصـار حتى بادرتها مـحنة جديدة، كانت بالنسـبة لها فاجعـة! ملأتْ نفسهـا حُزْنًا وألمًا، وجرحًا بالغًا ظـل يتفاعل ويدمي كل حياتها؛ ذلك هو مَرَضُ أمِّها «خديجة» ثم وفاتها رضي الله عنها!! لقد وجدت نفسها أمام مسؤوليات جسام نحو أبيها، فتقاسمت مع «أمِّ كلثوم» أختها الأعباء، وكانت جديرةً بالتَّحمُّل، فضاعفت الجهد، وتحملت صابرة، مُحتسبة أجرها عند الله تعـالى، وبادلهـا الأب العظيم والنـبيُّ الرحـيم الحبَّ والحنان والرعـاية والإشفاق، والزاد العظيم، حتى اشتهرت بأنها أُمُّ أبيها رضي الله عنها.

● وتتابعت الأحـداث:

تمت بيعـة العقبـة، ثم أعقبـتها الهِـجْرةُ إلى «المدينة»، وبقيت «فـاطمة» مع أختيهـا «أم كلثوم» و«رُقَيَّة»، وأم المؤمنين «سودة بنت زمـعة» في «مكة»؛ وكانوا جميـعًا في قلَقٍ حتى جاءَتَهْمُ الأنباء بـوصول رسول الله ﷺ إلى «المدينة» مع «أبي بكر» سالمين، فاطمأنَّت قلوبهنَّ وهدأت خواطرهن.

وبعد عـدَّة أيام طرق بابهنَّ ليْلاً «**زيد بن حـارثة**» رضي الله عنه، إذ أوفدَهُ رسول الله ﷺ إليهن ليأتي بهنَّ! ففرحن بقدومـه، وجهزن أنفسهـنَّ، ثم خـرجن معـه! ثم كـان اللقـاء الحبيب السعيد.

وبدأت «فاطمة» مرحلة جديدة في حياتها، كانت قد بلغت الثامنة عشرة من عُمرها، ونضجت أُنُوثةً، واكتملتْ عقلاً ووعْيًا وإدراكًا، وحتى حينِه لم تراودها فكرة الزواج، فقد كانت في شُغل شاغلٍ عن ذلك، كانت كل همومها أن تؤدي واجبـها نحو ربها ورسـولِه ﷺ! وذلك منتهى ما تتـمناهُ وتأمله. لكن الزواج سُنَّة الحياة! فجـاء «أبو بكر» رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ يخطب «فاطمة» رضي الله عنها، فاعتذر لهُ النبيُّ ﷺ، وكذلك فَعَلَ مع «عمر» رضي الله عنه!

وحَدَّثت «عليًا» نفسه، تُرى هل يقبل بِهِ رسول الله ﷺ زوْجًا لـ «فاطمة» وقد ردَّ «أبا بكر» و«عُـمَرَ»؟ وهو الذي عايش بيت النبـوَّة طفلاً ثم شابًا يافـعًا، ورأى «فاطمة» تكبر وتكبر، وقد آن أوانُها!.

ثم حدَّث بما يجول في خاطِرِه «الفاروق»، فَشَجَّعَهُ وأيَّدَهُ وحَفَّزَه!.

فذهب «علي» ﷺ إلى النبيِّ ﷺ وجلس بِقُرْبِه على استحياء، لا يذكر سبب حضوره، وطال الوقت وهو صامت لا يتكلم، فنظر إليه رسول الله ﷺ برِفْقٍ، والبسمة ترتسم على وجهه الشريف، ثم سَأَلَهُ: **«ما حاجة ابن أبي طالب»**؟ فردَّ «عليّ» بصوتٍ خافت، وحياءٍ شديد: ذكرت «فاطمة» بنت رسول الله ﷺ: فأجابه النبي ﷺ وقد تهلَّل وجهه الشريف: **«مرْحبًا وأهلاً»**، ولم يزد على ذلك كلمةً.

فانصرف «علي» وهو لا يكاد يصدِّق، فلما سُئِل عن نتيجة طلبه، قال: تحدثت إلى رسول الله ﷺ في الأمر، فقال لي: **«مرحبًا وأهلاً»**، فقيل له: يكفيك من رسول الله ﷺ إحداهما. في اليوم التالي حضر «علي» ﷺ عند رسول الله ﷺ وعاوَدَ الطلب، فسألهُ النبيُّ ﷺ: **«وهل عندك من شيءٍ»**؟ فقال: لا، يا رسول الله، فقال له النبي ﷺ: **«فأين درْعُك الخطمية التي أعطيتُك إياها»**؟قال: هي عندي!..

فأمره ﷺ أن يأتي بها، ثُم طلب إليه أن يبيعها ليجهز العروس بثمنها، فاشتراها منه «عثمان» ﷺ بأربعمائة وسبعين درهمًا، تسلمها رسول الله ﷺ، فدفع جُزءًا منها إلى «بلال» ﷺ ليشتري طيبًا وعطرًا، ودفَعَ الباقي إلى «أم سلمة» كي تشتري جهاز العروس وما يلزمها.

ثم قال رسول الله ﷺ لخادمه «أنس بن مالك» رضي الله عنه : «**انطلق وادْعُ لي «أبا بكر» و«عمر» و«عثمان» و«طلحة» و«الزبير» ويعدتهم من الأنصار**».

ودخل على «فاطمة» فـقال لها: «**يا فاطمة إن عليًا ذكركِ**»، فصمتت رضي الله عنها حياءًا. . ! .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فوجد كبار الصحابة الذين دُعُوا قد حضروا، فخطبهم قائلاً:

« **الحمد لله المحمود بنعمتِهِ، المعبود بقدرتِهِ، المُطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، والنافذ أمره في أرضِهِ وسمائِهِ، الذي خَلَقَ الخلق بقدرتِهِ، وأعزَّهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ: إن الله عزَّ وجلَّ جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا، وأمْرًا مفترضًا، حكمًا عادلاً، وخيْرًا جامعًا، أوشج به الأرحام، وألزمها الأنام فقال الله عزَّ وجلَّ**: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٤).

وأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. ثم إن الله أمرني أن أزوِّج فاطمة من علي، وأشْهِدكم أني زوَّجْتُ فاطمة من علي على أربعمائة مثقال فضة ـ إن رضي بذلك ـ على السُّنَّة القائمة والفريضة الواجبة، فَجَمع الله شملهما، وبارك لهما، وأطاب نسْلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة، وأمن الأمة، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم».

ثم أمر رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر، قدَّمه إلى ضيوفه وقال لهم: «**تخاطفوا ..**».

فبينما هم كذلك قال لهم ﷺ «**انتظروا**».

ونظر القوم فإذا «علي» رضي الله عنه مقبل نحـوهـم، فتبسم رسول الله ﷺ وقال له: **«يا علي إن الله أمرني أن أزوّجك فاطمة وإني قد زوّجتها على أربعمائة مثقال فضة»**. فقال «علي» رضيت يا رسول الله، ثم خرَّ ساجدًا شاكرًا لله تعالى، فلما رفع رأسَهُ قال له رسول الله ﷺ:

«بارك الله لكما وعليكما، وأسعد جدكما وأخرج مِنْكما الكثير الطيِّب».

وفي ليلة الزفاف أمر رسـول الله ﷺ «أمّ سلمة» رضي الله عنها أن تمضي بالعروس إلى دار عليٍّ التي جهزها ﷺ لسكناهما، وكانـت مجاورة لحجرات أزواجه، وأن تنتظره هناك، فلمـا صلى رسول الله ﷺ العشـاء الآخرة، ذهب إلى دار علي، وهناك دعا بماءٍ فتوضأ ثم دعا بهذا الدعاء:

«اللهمَّ بارك لهـمـا، وبارك عليـهـمـا، وبارك لهـمـا في نسلهـمـا» ثم نضح بماء وضوئه ﷺ الزوجين.

ثم أوصى ابنته أن تكرم زوجها، وأوصى عليًا فقال له: **«يا علي لا تغضب، وإذا غضبت فاقعد، واذكر قدرة الله تعالى على العباد حلمه عليهم، وإذا قيل لك: اتق الله، فاترك غضبك عنك، وارجع لحلمك»**.

كان «علي» رضي الله عنه وكرَّم وجهه قليل المال، رقيق الحال، فقامت «فاطمة» رضي الله عنها بأعباء البيـت، على أتمِّ وجه وأكمله، ومن مظاهر تعبها أنهـا تشققت يداها من عمل الرُّحى، فـأشفق عليـها «علي» وطلب إليـها أن تسأل أباها خـادمًا يعـينها ويخـفِّف عنها! فلمـا أتَتْه ﷺ نظر إليـها نظرة المشّـفق، وحنا عليـها بكفـيه الشريفتين، يربت على كتفهـا، ثم علمها قراءة سورة «الإخلاص» و«المعوذتين»، فإنها خير معوان، وعادت رضي الله عنها بهذا الزاد العظيم.

ومضى عام على هذا الزواج المبارك، وكانت «فاطمة» قد حملت، ثم وضعت بكرها «الحسن» رضي الله عنه وسماه أبوه «حربًا»، فغيَّرهُ رسول الله ﷺ «الحسن»، ثم توالى الحمل والولادة، فكان «الحسين» رضي الله عنه، ثم «محسن»، ولكنه مات صغيراً ثم «زينب» عقيلة بني هاشم، ثم «أم كلثوم» رضي الله عنها.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«جَعَلَ الله ذريَّة كل نبيٍ من صلبه، وجعل ذريتي من صلب عليٍ».

كما يُروى عنه ﷺ أنَّه جمع «فاطمة» و«عليًا» وذريتهما وغطاهما ببردته وقال: **«اللهم هؤلاء أهل بيتي خاصَّتي، اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».**

وأضاف: «اللهم اجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد». وذلك بعد نزول قول الله تعالى:

● ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

ولقد خصَّ النبي ﷺ **«فاطمة»** بحبِّه العظيم خصوصًا وقد توفيت بناتُهُ **«زينب»** و**«رقية»** و**«أم كلثوم»** في حياته، وحزن لفقدهنَّ حُزْنًا بالغًا، ولم تبقى إلا **«فاطمة»!**

ولقد قال لها يومًا: **«إن الله تعالى يرضى لِرضاكِ، ويغضب لغضبكِ».**

كما قال: **«خير نساء العالمين أربع: مريم، وآسية، وخديجة، وفاطمة»**[1].

(١) مريم ابنة عمران ـ أم عيسى عليهما السلام ـ و«آسية بنت مزاحم» زوجة فرعون».

وروى «أبو ثعلبة الخشني» ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر أو غزو بدأ بالمسجد فيصلي ركعتين، ثم يزور ابنته «فاطمة» ﷺ، ثم يأتي أزواجه ﷺ.

ووصل إلى مسامع «فاطمة» ذات يوم أنَّ «عليًا» ﷺ يريد أن يخطب عليْها ويتزوَّج، فأَتَتْ أباها ﷺ وذكرت له ذلك، فطيَّب خاطرها، ولاطفها وسرَّى عنها، ثُمَّ خَطَب ﷺ في المسلمين، ولم يوجِّه كلامه إلى «علي» مباشرة، بل عَرَّضَ تعريضًا، ولمَّح تلْميحًا، فقال في خطبته: **«فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤْذيها»**.

عندئذ أدرك «عليٌّ» القَصْد، فصرف نظره عمًّا كان قد نوى.

وكان من حبِّ رسول الله ﷺ لأحفاده أنَّه كان يضعهم على ظهره ويطوف بهم حَبْوًا في أنحاء الدار، ودخل عليه يومًا «أبو بكر» ﷺ فرآه على تلك الحال.. «**الحسن**» و«**الحسين**» على ظهرِه الشريف، فقال «أبو بكر، نعم الجَمَل جملكُما، فَرَدَّ عليه رسول الله ﷺ مخاطبًا حفيديه الكريمين: **«ونعْم الحمِلْ أنتُما»**.

لقد ضربت السيدة «فاطمة» ﷺ مثلاً أعلى في حياتها الزوجية، وفي حسن علاقاتها مع معارفها، من جيرانها وقريباتها، وفي القيام برسالة الأمومة، وتقديم التوجيهات التربوية السامية لأولادها، وكانت عابدة تقية، قائمة صائمة، تاليةً لكتاب الله، حافظة راوية لحديث رسول الله ﷺ ولقد شهدت لها أم المؤمنين «عائشة» ﷺ فقالت: «ما رأيت أفضل من فاطمة».

وقالت: «ما رأيت أحدًا من خلق الله أشبه حـديثًا ومشيًا برسول الله ﷺ من فاطمـة»، وروى عن «عائشـة» ﵂ قولهـا: «كانت فاطمـة إذا دخلت على رسول الله ﷺ أخذ بيدها، وأجلسها بجواره، ورحَّبَ بها أجمل ترحيب».

وبعد أن حَجَّ رسول الله ﷺ حجَّة الوداع، ومـضت ثلاثة شهور إلا قليلاً من الأيام، أصابتـه الحمى، ولازم الفـراش، فكانت «فاطمـة» ﵂ أَشَدُّ الناس فزعًا، فكانت تأتيه كل يوم لتطمئنَّ عليه وتعوده.

وفي يوم. . أخذ بيدها وحبـسها إلى جانبه، ثم قَرَّبها منه وأسَـرَّ لها حديثًا فبكت، ثم أسر لها حديثًا آخر فضحكت!.

وقالت «عائشة»: «ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقرب إلى الحزن».

وطلبت من «فاطمة» أن تخبرها بما أسرَّ إليـها رسول الله ﷺ فقالت: «ما كنتُ لأفْشي سر رسول الله ﷺ».

وبعد الوفاة ـ وفاة رسول الله ﷺ ـ سألتها «عائشة» عما أبكاها وأضحكها من حديث رسول الله ﷺ فـقالت «فاطمة» ﵂: أمـا الآن فنعم. . لقد قال لي: «**إن جبريل كان يدارسني القرآن في كل سنة مرةً، وإنه دارسني هذا العام مرتين.. وما أراه إلا قد حَضَرَ أجلي**»، فبكيت. ثم قال لي: «**وإنك أول أهلي لحوقًا بي، ونعم السَّلَف أنا لك**»، فضحكت.

ثم اشتـد الوجع برسول الله ﷺ فاشتـد حزن «فاطمة» عليـه، فلما لحق بالرفيق الأعلى، نادت «فاطـمة» بأعلى صوتها: أبتاهُ. . أبتـاهُ. . يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، جنة الفـردوس مأواه، من ربِّه مـا أدْناه. . وفاض بها الحـزن، فبكت بكاءً مُرًا، وأبكت من حولها.

وبعد ستة شهورٍ من وفاته ﷺ كانت «فاطمة» قد ذبلت وهزل جسْمها، ونهكت قواها، وهد الحزن عودها، فوقعت فريسة للمرض، وما هي إلا أيام حتى فاضت روحها الطاهرة إلى بارئها، ولحقت بأبيها ﷺ.

وصلى عليها زوجْها «علي» كرَّم الله وجهه، وعمه «العباس»، ثم دُفِنت في «البقيع»، وكان ذلك ليلة الثلاثاء، لثلاثٍ خلون من شهر «رمضان» سنة إحدى عشرة للهجرة، وقد أتمَّت تسعة وعشرين سنة!.

- رضي الله عن «الزهراء البتول» «فاطمة» ريحانة قلب سيِّد الأنام!
- وزوْجه فارس الإسلام «علي بن أبي طالب» كرَّم الله وجهه.
- وأمَّ «الحسن» و«الحسين» سيِّدا شباب أهل الجنَّة!
- وأمَّ «زينب» عقيلة بني هاشم، وبطلة «كربلاء».
- وجدَّة الذرية الصالحة الطيبة!
- وأرضاهم أجمعين.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

★★

الفهرس

الصفحة	الرقم

★★

هـذا الكتــاب

- يقـول اللـه عزوجـل (إنمـا يُـريــد اللـــه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهــركـم تـطهيــراً) ٣٣ الأحزاب
- يا أهــل بيت رسول الله حُبـكـمُ ... وضـئ مـن اللــه فـى القــرآن أنـزلـهُ كفــاكـم مـن عظيـم القـدر أنكـمُ ... مـن لـم يُصـل عليكـم لا صـلاة لـه إن عُدَّ أهـل التقى كانـوا أئمتهــم ... أوقيل من خير أهـل الأرض ؟ قيل هُـمُ
- إن الحديث عن (بنات النبى ﷺ) طيب ، شيق ، فيه عَبق النبـوة ، وصفحـات السيرة العطـرة الطاهـرة ، ولكل واحـدةٍ منهـن رضي الله عنهن بصمتهـا ، ودورهـا ، وإشــراقهـا مـن نطفــة المصطفــى ﷺ ورحــم سيــدة نـســاء العــالمـين (خديجــة) رضي الله عنهـا فــي الدنيــا والآخــرة .
- دَوْحَة ظليـلِة وثمـار شهيـة ، وأزاهيـر لا تـزال إلـى يومنـا هـذا ، (إلى أن يـرث الله الأرض ومن عليها) يُعطِرن الوجود بنفح ندىٍ ، يُنعش القلوب والأنفس .
- في حياة كل منهن رضي الله عنهن أمومة ، وبيت زوجية يُرفرف عليه السعادة والرضا وفـوق ذلـك كلـه إيمـان .. وصـدق يقـين .
- وفـي هـذا الكتــاب نستقـرئ معـاً سيــرة وحيــاة الــزهــرات اليــانعــات زينـب ورقيــة وأم كلثــوم وفــاطمــة رضي الله عنهن نستنشــق عطـرها وننعـم بشـذاها ونقتـدي بهــا .

النـاشــر



٤ شارع الأسقفية - المنشية الأسكندرية

تليفاكس ٠٣/٤٨٧٩٠٦٥ - محمول ٠١٢/٣١٦٦١١٨